

أنماط العمران القديم في منطقة عسير بالمملكة العربية السعودية نشوئها وطرائق الحفاظ عليها¹

المهندس عبد الله بن عبد الرحمن الزهراني² الدكتور سعد الله جبور³
الدكتور جهاد عيسى⁴

الملخص

يتلخص البحث في دراسة العمران القديم في منطقة عسير في المملكة العربية السعودية لما يتميز به من خصائص ومميزات، كقدم نشأة العمران واستمراره واهتمام سكان المنطقة منذ القدم بأنماط مميزة من العمارة وإيضاح تباين توزيع المراكز العمرانية في منطقة عسير كالسهل الساحلي والمنطقة الجبلية ومنطقة الهضبة، وكذلك إيضاح نمط كل منطقة من المناطق الثلاث وأسلوب البناء بما يتناسب مع طبيعتها ونشاطهم الاقتصادي والظروف السياسية والاجتماعية والأمنية والعوامل المؤثرة في أنماط توزيعها، كما تميزت منطقة عسير بكثرة عدد مراكزها العمرانية. وقد تميزت تلك القرى بالتصاق منازلها وبممراتها الضيقة التي تعكس أشكالها ومخططاتها العمرانية كأحد أساليب الدفاع والحماية وقد شهد نمط العمران فيها تغييراً شاملاً شمل أساليب البناء وطرائقه والمخططات حيث حلت الخرسانة ومواد البناء الحديثة محل الحجر والطين وأصبحت المباني الحديثة فيها صورة مطابقة لمباني المناطق الأخرى في المملكة العربية السعودية أوجدت صورة سلبية في عمارة المنطقة ومبانيها القديمة المتناسقة مع محيطها.

¹ أعدَّ البحث في سياق رسالة الدكتوراه للطالب عبد الله بن عبد الرحمن الزهراني بإشراف الدكتور سعد الله جبور ومشاركة الدكتور جهاد عيسى.

² قسم التخطيط والبيئة- كلية الهندسة المعمارية- جامعة دمشق.

³ قسم التخطيط والبيئة- كلية الهندسة المعمارية- جامعة دمشق.

⁴ قسم التخطيط والبيئة- كلية الهندسة المعمارية- جامعة دمشق.

ويقترح الباحث في ضوء أهمية الحفاظ على أنماط العمران القديم في منطقة عسير:

- الاستفادة من القرى التراثية القديمة في تجديد تراث الماضي تشمل جميع القرى في المنطقة للحفاظ على الرصيد العمراني المتبقي من مبانيها وتحسين بيئتها بشكل يتناسب مع أهميتها التاريخية والعمرانية والسياحية ورفع مستوى الخدمات وتطويرها لتتوافق مع العمران التقليدي لكل قرية على حدة.

مقدمة:

تهتم دراسة العمران بالتعرف على توزيع المراكز العمرانية وتصنيفها، وأنماطها والأسباب التي أدت إلى نشوئها، فضلاً عن مناقشة العوامل التي تؤثر فيها أو تشكل ضوابط ومحددات لها بهدف التوصل إلى تحديد الأنماط التخطيطية لهذه المراكز العمرانية، وهي عملية ضرورية لإعادة بنائها أو تنميتها، وللتأكد من ذلك قام الباحث بمحاولة جادة لدراسة النمط العمراني القديم في إحدى مناطق المملكة العربية السعودية المهمة، وهي منطقة عسير الواقعة في جنوب غرب المملكة.

تتفق الدراسات العلمية على قدم نشأة مراكز العمران و ثباتها واستمرارها في منطقة عسير وذلك لتوافر الخصائص المكانية المناسبة فيها لظهور مراكز العمران ونموها وتطورها، من جهة واهتمام سكان منطقة عسير منذ القدم بأنماط العمارة والبناء لأغراض سكناهم وتوفير الأمن والأمان لهم من الجهة الأخرى فمن أنماط العمارة والمباني ما كان مخصصاً للعبادة، ومنها ما كان مخصصاً للحماية والمراقبة والدفاع، أو لخرن الحبوب، (الرفاعي، 1407هـ)، ولذلك تتميز منطقة عسير بكثرة مراكزها العمرانية مقارنة بالمناطق الأخرى في المملكة العربية السعودية. فقد أكدت نتائج المسح الاقتصادي والاجتماعي الشامل الذي أُجري في المملكة عام 1404هـ، 1984م هذه الحقيقة، وقد احتلت منطقة عسير المرتبة الأولى بين مناطق المملكة بعدد قراها الذي بلغ 3000 قرية، ومن ثمّ فهي تشكل نحو ثلث مجموع القرى في المملكة، (وزارة الشؤون البلدية والقروية، 1404هـ)، وقد بلغ هذا العدد 4290 قرية عام 1412هـ، 1992م، وارتفع إلى 4430 قرية عام 1422هـ، 2002م.

ونظراً لقدم الاستيطان في منطقة عسير وقدم نشأة مراكز العمران فيها توافرت فيها مقومات السياحة التاريخية التي يفوح منها عبق التراث والإرث الحضاري الثري، وتتمثل هذه المقومات في مجموعة من المدن والقصور والقلاع والحصون والطرق والممرات التجارية القديمة، (عبد الفتاح، 1983)، حيث شملت نمط ومظاهر العمران

القديم ومظاهره في عدد من القرى التي ظهرت في منطقة عسير خلال القرون الماضية والتي ورد ذكرها في عدد من كتب الرحالة الذين قدموا وصفاً للمنطقة مثل: تاميزية M.Tamizia وكورنواليس K.Cornwallis وفليب J.Philb الذين وصفوا منازلها ومواد بنائها والمرافق المحيطة بها، مثل قرى بيشة التي بلغ عددها نحو 60 قرية أكبرها نمران، والروشن، وقرى المناطق الأخرى مثل الحبلية وقرى صيبيا وقرى النماص والشعيبين والظفير ورجال ألمع وسراة عبيدة والقرعاء وتمنية والمسقى وقرى وادي بارق وغيرها.

تشكل هذه القرى نمطاً معمارياً فريداً على مستوى العالم و المملكة خصوصاً كما أنها ركيزة اقتصادية من ركائز الاقتصاد السياحي السعودي. وهي بأشكالها الهندسية و مواد بنائها وهندسة الديكور فيها تشكل أنماطاً هندسية صالحة للاستفادة منها في عملية المزوجة بين التراث الهندسي القديم والحديث وفي ربط الحاضر بالماضي والمعاصرة المعمارية بالأصالة العمرانية.

ونظراً لشح الدراسات في موضوع النمط العمراني القديم في منطقة عسير كما هي الحال عليه في معظم مناطق المملكة، قام الباحث بتحديد أهداف البحث على النحو الآتي:

- 1- تحديد ملامح العمران القديم وخصائصه في منطقة عسير ومدى تأثيرها بالعوامل الطبيعية الاجتماعية.
- 2- التعرف على أنماط العمران القديم في منطقة عسير.
- 3- دراسة الخصائص العامة للمباني العمرانية في منطقة عسير.
- 4- التعرف على أثر الطبيعة وانعكاساتها المادية والاجتماعية في تنوع أنماط الهندسة العمرانية في منطقة عسير.
- 5- الكشف عن أساليب البناء العمراني القديمة في المنطقة من خلال فحص خامات البناء.

6- توضيح التخطيط الهندسي لمساحات المباني.

7- معرفة هندسة الديكور القديم في المباني القديمة من الداخل والخارج.

8- وضع التصورات والأفكار التي يتوقع فائدتها في التأثير في التراث العمراني في المنطقة وتطويرها سياحياً واقتصادياً.

النتائج و مناقشته:

بعد إجراء دراسة مسحية للمنطقة من خلال الزيارات المنظمة لمحافظةها المختلفة وبالتعاون مع بعض الخبراء والمختصين والسكان المحليين توصل الباحث إلى أن هناك عدة مظاهر للعمارة القديم في المنطقة، وقد قسمها على النحو الآتي:

أولاً : القرى في منطقة عسير:

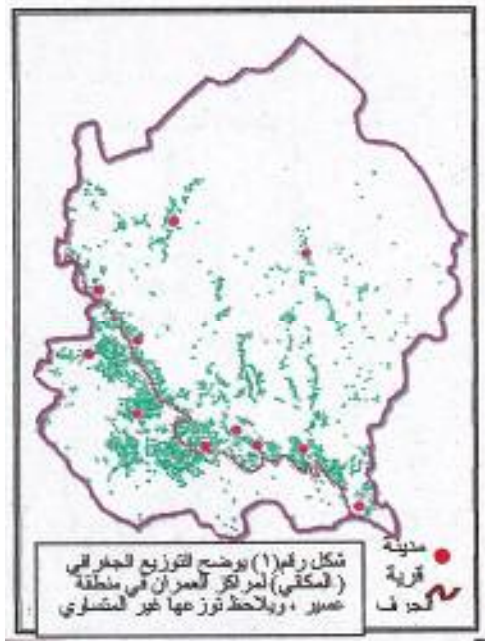
1- خصائص قرى منطقة عسير: تمتاز قرى منطقة عسير بما يأتي:

أ- إنها قرى مدمجة تتميز بتقارب منازلها أو التصاقها ببعضها بعضاً، وتخترقها ممرات ضيقة تتصل ببعضها البعض، ويعكس شكلها ونمط تخطيطها العمراني أحد الأساليب التي لجأ إليها سكان المنطقة للدفاع عن قراهم وأنفسهم بسبب حالة الفوضى والخوف التي كانت تسود المنطقة قديماً نتيجة للحروب القبلية وما رافقها من أعمال السلب والنهب التي انتشرت في تلك الفترة. وكانت لبعض القرى أبواب تفتح صباحاً وتغلق عند المساء حتى يأمّن السكان على أنفسهم.(الرفاعي، 1407هـ)

ب- تأثر توزيعها بنمط الحياة المعيشية السائدة آنذاك وبنوع نشاط سكانها الذي شمل الزراعة ورعي الماشية والتجارة، لذلك انتشرت هذه القرى في الأراضي الصالحة للزراعة، وحول المناطق الصالحة للرعي، وبالقرب من مواقع الأسواق التجارية الأسبوعية التي كانت ترتبط بالطرق التجارية البرية أو بالقرب من شواطئ البحر الأحمر وخاصة في المواقع المناسبة لرسو السفن والمراكب التجارية.(جريس، 1422هـ)

ج- إن القرى عبارة عن مجموعة بيوت يمتلكها أفراد بعض العائلات الذين ينتمون إلى أسر ممتدة أو عشيرة واحدة، إذ نادراً ما تسكن في قرية واحدة عائلات تنتمي قبلياً إلى عدة قبائل أو عشائر.

د- يتصف الشكل العام للنسيج العمراني بالنمط العنقودي حيث تسكن الأسر المنتمية لعائلة واحدة في موقع معين على شكل حرف U ضيق الفتحة تمثل هذه الفتحة مدخلاً عاماً للعائلة إلى بيوتها وغالباً ما يكون بيت الأب أو الجد الأكبر من حيث الحجم ويكون بناؤه مخروطياً وطابقياً وتحيط به بيوت الأهل من اليمين واليسار لأن الخلف غالباً ما يكون محمياً حماية طبيعية لوقوعه على حافة جبل أو هضبة أو منطقة وعرة جغرافياً يصعب بلوغها. ويحرس البوابة بعض الأهالي حيث يفتحونها صباحاً ويغلقونها مساءً لتوفير الحماية والأمن والسكان (الرفاعي، 1407هـ).



ه- يتميز شكل القرى غالباً بالتجمعات الموزعة و الصغيرة التي تندمج في كتل عمرانية متناثرة شكل رقم (1)، حيث تسكن كل عائلة في اتجاه من القرية وتصل بين كتل البيوت طرق بسيطة وممرات وأزقة متعرجة تتسم بالتعقيد والتعرج والصعوبة ونادراً ما توجد ساحات عامة أو بيوت متميزة إلا للقادرين من الناس. وأحياناً توجد تجمعات لبيوت في مزارع قريبة من مراكز القرى تقام عادة لأسباب اقتصادية أهمها ملكية الأراضي في تلك المزارع.

و- تتصف القرى من حيث الكثافة السكانية والبنائية بأنها ضئيلة السكان والأبنية مقارنة بمساحتها ولعل ذلك يعود إلى الهجرة الداخلية من منطقة إلى أخرى بحثاً عن مصادر العيش، باستثناء بعض القرى السياحية التي يزداد عدد المقيمين فيها صيفاً.

ز- ترتبط القرى مع الوسط الطبيعي المحيط ارتباطاً وثيقاً فغالباً ما توجد هذه القرى على السفوح الجبلية أو سفوح الهضاب والمرتفعات المجاورة للسفوح القابلة للزراعة لأن هؤلاء السكان ريفيون يحبون الجبال لأنهم يرغبون بحماية هذه القرى من أخطار السيول والمحافظة على الأرض الزراعية الخصبة والاستفادة من أحجار الجبال في البناء والقدرة على مقاومة المخاطر الخارجية والدفاع عن القرى ولعل اختيار سكان القرى لهذا النموذج العمراني يعكس حالة الغموض والخوف التي كانت تسود المنطقة.

ط- تتصف قرى المنطقة بمناخها المعتدل ومناظرها الجميلة والمتنوعة من بحر إلى جروف ومنحدرات ومراعٍ وغابات إلى سفوح وتلال تكسوها الأشجار وتقطنها الطيور النادرة وصولاً إلى الصحراء. وتتوعد أنماط المعيشة بهذا التنوع المناخي فسكان المرتفعات يعملون في الزراعة وتربية النحل والمواشي، أما سكان الهضاب فيعملون في التجارة والأسواق والمراكز التجارية وكلما اقترب الفرد من الصحراء وجد الناس يعملون في الرعي وتربية النخيل وبعض الإبل.

2- تأثير العوامل الطبيعية والاجتماعية والاقتصادية:

تتباين طرائق بناء المنازل والمباني وأساليبه في القرى القديمة بعسير بسبب العوامل الطبيعية في البيئة المحلية والعوامل الاقتصادية واختلاف تأثيرهما من مكان إلى آخر، وعوامل التضاريس والظروف المناخية وطبيعة مواد البناء المتوافرة والوضع الاجتماعي للسكان وغيرها وستوضح ذلك فيما يأتي:

أ- تأثير العوامل الطبيعية في تنوع أنماط العمران القديمة في قرى المنطقة:

أثرت الطبيعة الجغرافية للمنطقة في المباني العامة والمرافق العمرانية المختلفة. فبالنسبة لطرائق بناء بيوت هذه القرى ومرافقها، يلاحظ أنها قد تباينت بين مكان وآخر بسبب العوامل الطبيعية واختلاف تأثيرها، وأهمها التضاريس والظروف المناخية وطبيعة مواد البناء المتوافرة وإمكانية الحصول عليها. ويمكن بالاعتماد على هذا الأساس تمييز ثلاث مناطق أو محاور تختلف فيما بينها بطرائق بناء المنازل ومواده، وهي:

1- الجزء الأوسط من المنطقة، ويشمل المنطقة الجبلية الشاهقة الارتفاع، التي يمكن تسميتها بالجزء السروي أو المنطقة السروية نظراً لوقوعها في الحافة الجبلية لجبال السروات، ويوجد في هذا الجزء القسم الأكبر من السكان والقرى والمنازل، كما ذكر آنفاً، والقسم الأكبر من بيوت القرى فيه مبنية بالحجارة، وتوضح الصور في الأشكال رقم (1-1)، (2-1)، نماذج من المباني الحجرية والطينية من بعض القرى في مناطق مختلفة من منطقة عسير، ولا تزال مئات من هذه القرى التي تضم آلاف المنازل ماثلة للعيان حتى الوقت الحاضر. أما القسم الآخر فقد استعمل في بنائه الطين فقط، أو الطين والحجارة معاً، بحيث يُبنى المنزل بجدران حجرية ترتفع عن سطح الأرض 1-2م، ويبني فوقها بالطين، ويمكن تعليل استعمال الطين، أو الطين والحجارة معاً في بعض المناطق الجبلية السروية بندرة الحجارة الصالحة للبناء فيها أو بالقرب منها.



الشكل رقم (1-1) يوضح الطراز المعماري بقريّة آل متحمي بمحافظة أبها



الشكل رقم (2-1) يوضح الطراز المعماري بقريّة أخرى بمحافظة أبها

2- الجزء الغربي الذي يشمل سهل تهامة الساحلي وأقدام المنحدرات الغربية للمنطقة الجبلية، والتي يطلق عليها سكان المنطقة اسم الأصدار، فقد استخدم فيه الحجر لبناء بعض المباني في القرى الكبيرة مثل محائل وبارق ورجال ألمع. الشكل رقم (3-1) يوضح الطراز المعماري لقريّة رجال ألمع التراثية في المنطقة الجبلية التي تقع بعيداً عن الساحل نسبياً، كما استخدمت الأخشاب وجذوع الأشجار بكثرة في بناء المنازل في المنطقة السهلية الساحلية، ويُطلق على هذه المنازل تسميات محلية مثل العشش والصبول والعرايش أو الأعرشة.

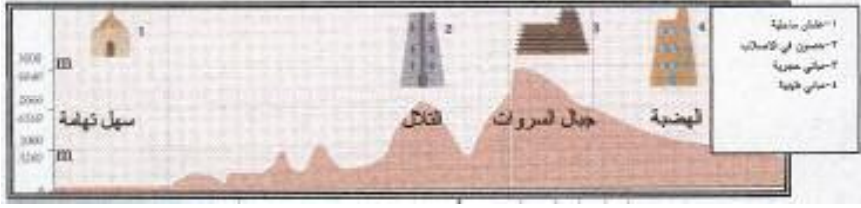


الشكل رقم (3-1) يوضح الطراز المعماري بقريّة رجال ألمع التراثية في المنطقة الجبلية 3- الجزء الشرقي ويضم منطقة الهضبة، وأغلب بيوته مبنية من الطين، الشكل رقم (4-1) وبعضها مبني من الأخشاب وجريد النخيل، وقليل منها مبني بالحجارة ولكن بمستوى يقل عن بيوت المنطقة الجبلية السروية، هذا فضلاً عن بيوت الشعر التي يستخدمها البدو الرحل المنتشرون في أنحاء الهضبة وينتقلون مع حيواناتهم من مكان إلى آخر بحثاً عن الكلاً والماء.



الشكل رقم (4-1) يوضح الطراز المعماري بقريّة تثليث القديمة والشكل رقم (5-1) يوضح أشكال المباني التراثية المنتشرة في مختلف أقسام منطقة عسير، فتنشر في سهل تهامة العشش أو الصبول، أما في المناطق الأخرى فتسود أنماط مختلفة من المباني الحجرية والطينية وتتشابه بيوت جميع هذه الأجزاء أو

المحاور بمرافقها التي تضم الأسوار وبعض الملاحق من غرف صغيرة تُستخدم كحظائر للماشية، أو مستودعات للتخزين.



الشكل رقم (1-5) يوضح أنماط العمران التراثية السائدة في أجزاء منطقة عسير

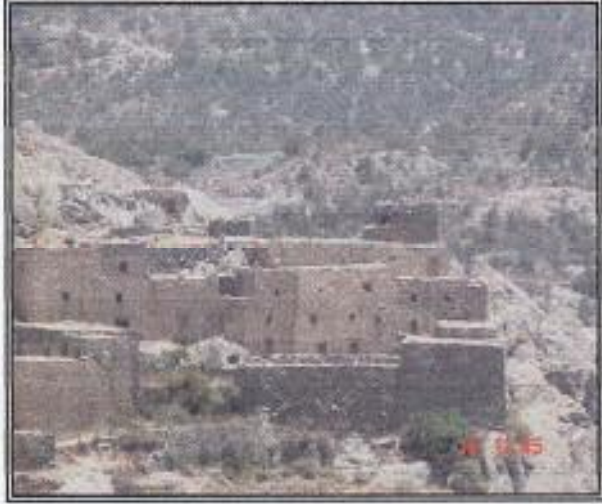
ب- تأثير العوامل الاجتماعية والاقتصادية

تختلف المنازل بأحجامها وعدد طوابقها بين مكان وآخر، ويتوقف هذا الاختلاف على الحالة المادية لأصحاب المنازل، فالمقتدرون مادياً مثل شيوخ القبائل والتجار يمتلكون بيوتاً متعددة الطوابق تزين بالنقوش والزخارف المحلية، أما بيوت عامة الناس والفقراء فتتألف من طابق واحد يضم غرفة أو غرفتين على الأرجح. وبصورة عامة يلاحظ تدني مستوى المباني وقلة عدد طوابقها في القرى الصغيرة أو القليلة السكان أو الفقيرة وفي المناطق الريفية والبدوية، ويتوافق ذلك مع تدني جودة مواد البناء المستخدمة عما هي عليه في القرى الكبيرة والمدن. كما يتشابه جميع سكان منطقة عسير تقريباً في اختيار مواقع منازلهم، وهذا لا يعني وجود مخططات منظمة متبعة، وإنما هناك نمط عام متبع يأتي من أن غالبية سكان المنطقة يمتلكون أراضي ورثوها، وحدودها معروفة بعام معينة، ويتم اختيار موقع السكن أو البناء المطلوب تشييده في داخل الأرض بصورة عشوائية، مع مراعاة القرب من مورد المياه ومن أفراد القبيلة أو العشيرة أو القرية التي ينتمي إليها صاحب البناء لتوفير الحماية وتسهيل التعاون معهم.

ج- بعض الأمثلة على تأثير العوامل الطبيعية والاجتماعية والاقتصادية في نمط العمران بالقرى القديمة:

1- اختلاف أساليب البناء اعتماداً على المواد الخام المتوافرة في المحيط الجغرافي:

تتنوع هذه الأساليب بتنوع المواد الخام بالبناء الموجودة في البيئة المحيطة وبشكل عام اعتمد أسلوب استخدام الطين والحجارة كمواد بناء رئيسية في بناء مباني منطقة عسير إذ كانت غالبية منازلها وغالبية مبانيها من الحجارة، وفي بعض الحالات بُنيت الأجزاء السفلية للمبنى من الحجارة وبنيت الأجزاء العلوية باستخدام الطين، ومع ذلك تتألف جميع منازل هذه القرى من طابق واحد أو طابقين كما يبدو في الشكل (6-1)،



الشكل رقم (6-1) يوضح الطراز المعماري بقرية الميفا بمركز السرح (الناماص)

باستثناء منازل رؤساء القبائل والشيوخ والأمراء، التي كانت أكثر اتساعاً ويرتفع بعضها إلى ما بين أربعة وسبعة طوابق. ومن هذه القرى، التي ورد ذكرها في كتب الرحالة كما ذكر أنفأ، قرى بيشة وأكبرها قرية نمران والروشن الصغير والروشن الكبير وقد استخدم في بناء منازلها الطين وجذوع النخيل، وقرية الظفير التي كانت تتألف من 400 بيت مبنية من الحجر، وقرية النماص التي كانت تضم نحو 400 بيت من الحجر أيضاً، وقرية الشعبين وكانت تضم 300 بيت من الحجر، وقرية رجال ألمع من ألف بيت تقريباً، وقرية سراة عبيدة من 200 بيت، وقرى وادي بارق التي بلغ عددها نحو 50 قرية وكلها مبنية من الحجر، وأبها التي كانت تتألف من ثلاث قرى

يضم كل منها نحو 70-80 منزلاً، وقرى تمنية والقرعاء وغيرها، ولا يزال كثير من هذه القرى موجوداً حتى الوقت الحاضر، إلا أن غالبية مبانيها القديمة لم تعد تُستخدم حيث هجرها أصحابها إلى مبانٍ حديثة من الإسمنت المسلح في قرى جديدة ظهرت بجوار القرى القديمة.

وهكذا نرى أن طريقة بناء البيوت في قرى منطقة عسير تختلف حسب طبيعة مادة البناء المستخدمة في بنائها (أحجار، طين، أغصان وقش) ويمكن تصنيفها على النحو الآتي:

أ- طريقة بناء البيوت الطينية: وتُبنى بأسلوبين، الأول أن يُبنى البيت بكامله من الطين (اللين)، الذي يتم تجهيزه من تربة جيدة التماسك وتخلط مع التبن بالماء وتداس بواسطة الأرجل، ثم تترك مدة يوم أو يومين، قبل استخدامها في بناء الجدران ويتواصل العمل حسب عدد الأدوار (الطوابق) المراد بناؤها، وقد تقوى الجدران بوضع حجارة مبسوطة في أعلاها تسمى محليا رقف، ثم يُشرع في التسقيف وصنع الأبواب والنوافذ. وتبنى المباني الطينية عادة بعدة أشكال: فمنها مبانٍ مربعة، أو هرمية، أو اسطوانية، أو مستطيلة الشكل. أما الأسلوب الثاني في بناء البيوت الطينية فهو أن يبنى أساس البيت بالحجر بارتفاع متر أو مترين، ثم يستكمل البناء بالطين. وتلاحظ البيوت الطينية في أماكن متفرقة من عسير مثل مدينة أبها وما حولها، وتثليث، ومحائل، وبارق، وبعض الأماكن في سهل تهامة.

ب- طريقة بناء البيوت الحجرية: وتتشابه في جميع أنحاء منطقة عسير، حيث تبدأ بتسوية موضع البيت وذلك بحفر نحو نصف متر لجدران الأساس، وتوضع في الحفرة (تسمى محلياً الربض) صخور كبيرة بشكل منظم تجلب من الجبال والأودية المجاورة، ثم تشيد فوقها جدران البيت، ويختلف سمك الجدران حسب حجم البيت وعدد طوابقه، ويرفع عادة الجدران في الطابق الواحد ثلاثة أمتار أو أقل، ويشيد الجدران بوجهين، وجه داخلي ويسمى القفا أو الخلف، ووجه خارجي

يراعى به جمال المنظر، ولذلك تستخدم في بنائه حجارة متساوية الأحجام ومشدبة، وتوضع بين الحجارة الكبيرة حجارة رقيقة صغيرة تُسمى صلب أو كحل لسد الفجوات وتجميل الجدران، ويستخدم الطين مع الحجارة في الوجه الخلفي كي يتماسك الجدار، ثم تُسقف المباني بجذوع أشجار العرعر أو الطلح أو الزيتون البري أو السمر بعد إعدادها بشكل مناسب، ويطلق على الجذع أو الخشبة اسم بطنة، وتُستخدم معها أغصان مستقيمة (مركاب، أو جريد) تفرش فوقها وتغطي ببعض النباتات والشجيرات مثل سعف النخيل وشجيرات العرفج وغيره، ثم يغطي سطحها بالطين بسمك 15-30سم ويفرش فوق التراب، وكذلك تُستعمل معها السواري أو الجيز، وهي جذوع كبيرة، كدعائم لتقوية السقوف وخاصة عندما تكون أطوال البطن أقصر من المطلوب، الشكل رقم (1-7) يوضح الطراز المعماري في المناطق الجبلية في منطقة عسير.



الشكل رقم (1-7) يوضح الطراز المعماري في المناطق الجبلية في منطقة عسير.

أما الأبواب والنوافذ فتصمم بأحجام صغيرة، بحيث لا يمكن للشخص المتوسط الحجم الدخول من النافذة، ويضطر للانحناء عند الدخول من الباب، وتكون نوافذ وأبواب

الطوابق السفلى عادة أصغر مما هي عليه في الطوابق العليا، والسبب في ذلك توفير قدر من الأمان ومنع السطو على البيت فضلاً عن تدفئة البيت.

ج- طريقة بناء المنازل بالقش والأغصان والطين بأشكال دائرية أو مخروطية أو مربعة أو مستطيلة : وهي طريقة بناء الصبول والعشش أو العريش، وتكون هذه المنازل على شكل أكواخ تُشيد بالقش والأغصان والطين بأشكال دائرية أو مخروطية أو مربعة أو مستطيلة، وتنتشر في سهل تهامة وفي بعض الأماكن من شرق منطقة عسير مثل مدينة بيشة وما حولها، وجميع هذه البيوت تُشيد من أخشاب الأشجار التي تنمو في المنطقة مثل الدوم والسمر والنخل والسلم والأثل وغيرها. ويبدأ بناؤها بحفر الأساس وغرس الأخشاب الثقيلة عمودياً بشكل منظم حسب شكل البناء المطلوب وبارتفاع 2-3م، وتربط بحلقة تسمى الجرائح وتتألف من أعواد رفيعة يمكن لفها حول محيط البيت، ويستكمل بناء البيت حتى أعلاه بقمة مخروطية ثم يُغطى بالقش والأغصان وتربط بحبال من نبات المرخ من الأسفل والأعلى، وتلف الحبال حول البيت حتى يصبح متماسكاً، ثم تُكسى الجدران من الداخل بالطين والجص وتزين برسوم لبعض الحيوانات والنباتات. (M.Thierry,1993) كما تُكسى العشش أو الصوابيل بالطين من الخارج في بعض الأحيان. و الشكل رقم (8-1) يوضح مراحل بناء العشة أو الصابول بدءاً من بناء الهيكل من جنوع وأغصان الأشجار وربطها ببعضها ببعض بحبال المرخ وكسوتها بالطين من الداخل والخارج.



الشكل رقم (8-1) يوضح أحد نماذج العشش أو الصوابيل التي يعيش فيها السكان في سهل تهامة الساحلي في منطقة عسير، وهي عبارة عن أكواخ دائرية الشكل تشيد من أغصان وجذوع الأشجار والحبال والقش والطين والشكلان (9-1)، (10-1) يوضحان نماذج من عشش مكتملة البناء في إحدى قرى سهل تهامة.



الشكل رقم (9-1) يوضح نماذج من العشش في سهل تهامة الساحلي بمنطقة عسير



الشكل رقم (10-1) يوضح عشة مكتملة البناء من الأغصان والقش والحبال وبجانبيها عريش للماشية

ويلاحظ الفرق بين العشش في الشكلين، إذ يلاحظ بساطة بناء العشة في الشكل الأول مقارنة بالعشش في الشكل الثاني والتي شيدت بعناية ووضعت على سقوفها الخارجية أغطية من أقمشة كتيفة لمنع تسرب مياه الأمطار إلى داخلها. وجميع البيوت على اختلاف أنواعها (حجرية، طينية، خشبية) تحاط بأسوار حجرية أو طينية أو من أغصان الأشجار والأخشاب، وتوضع في أعلاها أغصان من نباتات شوكية لحماية البيت من اللصوص والبهائم والوحوش المفترسة. وتزين جميع البيوت بعد اكتمالها بالنقوش والزخارف والرسوم والخطوط والأشكال الهندسية المختلفة باستخدام الألوان وأحجار المرو من الداخل والخارج. فضلاً عن ذلك تطلّى الأبواب والنوافذ أحياناً بالقطران، ويرسم على بعضها لوحات جميلة، أو تلون بألوان مختلفة، وتلون الأسقف والبطن والسواري بألوان متعددة، وتلقى غرف وقاعات المجالس المخصصة لاستقبال الزوار عناية كبيرة من حيث الزخارف والنقوش الموجودة في بعض المنازل القديمة التي تتجاوز أعمارها 300-400 سنة (جريس، 2002) وتتولى النساء غالباً مهمة تزيين البيوت وزخرفتها. و الشكل رقم (11-1) يوضح بعض نماذج الزخارف والألوان المستخدمة في منطقة عسير.



الشكل رقم (11-1) يوضح جداراً لأحد المنازل الطينية وتظهر عليه بعض نماذج الزخرفة بالألوان الزيتية التي استخدمت بدلاً من الألوان التقليدية القديمة التي كانت تستخدم في الزخرفة والشكل رقم (12-1) يوضح مشهداً لقرية قحطان في أحد أودية محافظة سراة عبيدة ومعظم مساكنها من الطين، ويلاحظ فيه النمط المعماري التقليدي الشائع في منطقة عسير، وزخرفة المساكن وخاصة طلاء الأقسام العلوية من المباني والنوافذ بالألوان الزيتية البيضاء والزرقاء. (Mauger T. 1996)



الشكل رقم (12-1) يوضح قرية قحطان في سراة عبيدة تمثل مبانيها النمط التقليدي للمساكن الطينية في منطقة عسير، التي تبدو كالأبراج، وتظهر في مؤخرة القرية بعض المباني الأسمنتية

2- تنوع التخطيط الهندسي لمسطحات المباني وديكورها الداخلي والخارجي باختلاف

الموقع الجغرافي والمستوى الاقتصادي الاجتماعي لساكنيها:

بالنسبة لاستخدامات المساكن ق تسكن الأسرة في مبنى واحد أو في أبنية متجاورة أو متلاصقة، صُممت من الداخل لتؤدي وظائف متماثلة، والشكل رقم (1-13) يوضح مسطح أحد المباني السكنية واستخدامات فراغاته ومرافقه. فإذا كان المسكن من عدة طوابق فإن مسطحاته تستغل على النحو الآتي: فالطابق الأرضي يضم المدخل والدرج وفسحة فضلاً عن زريبة للحيوانات ومكان لتخزين الأعلاف وحفظ المعدات الزراعية، ويضم الطابق الأول مخزن الحبوب والأطعمة وله نوافذ تطل على الخارج، أما الطوابق الأخرى فتخصص للمطبخ ومكان الغسيل وغرف النوم وفسحة مكشوفة للقيام بالأعمال المنزلية ويحيط بهذه الطوابق جدار مرتفع وخزان الماء الذي كانت تجلب إليه المياه من الآبار والعيون على ظهور الرجال والدواب وتخزن في قدور وأوان فخارية. (الرفاعي، 1407هـ)، أما بالنسبة لوسائل التبريد والتدفئة فلم تكن متوافرة، وكان الحصول على الدفء في الأيام الباردة يتم بإشعال النيران باستخدام الحطب من أشجار الأودية والجبال، أما الحصول على البرودة أو تلطيف الحرارة خاصة في فصل الصيف فكان يتم باللجوء إلى ظل الأشجار أو الاغتسال بالماء أو وضع بعض الأقمشة المبللة بالماء على سقوف العيش والمنازل لتخفيف حدة الحر وخاصة في سهل تهامة وفي الأطراف الشرقية من المنطقة. أما المرافق الصحية وخاصة بيوت الخلاء فلم تكن موجودة ولم تستخدم إلا في بيوت القبائل والأسر الثرية وبطرق بدائية، أما استخدامها بالشكل الحالي فلم يتم إلا في فترات متأخرة. وكذلك الأمر بالنسبة لتأثيث المنزل الذي كان يعتمد على الأوضاع المادية للسكان، فمنازل الأثرياء والأمراء وشيوخ القبائل كانت مؤثثة بشكل جيد، أما منازل الفقراء في القرى والبادية فلم تكن تضم سوى أثاث بسيط، وفي كثير من الأحيان تكون خالية من الأثاث، حيث كانت غالبية أنواع الأثاث تُصنع من جلود الحيوانات المحلية وأصوافها، ومن بعض الأخشاب أو تستورد من المدن الرئيسية في الجزيرة العربية، مثل مكة المكرمة والمدينة المنورة واليمامة والبحرين وصنعاء وغيرها.



الشكل رقم (1-13) يوضح مسطح أحد المباني السكنية واستخدامات فراغاته ومرافقه.

أما الأثاث والأدوات المنزلية في الماضي في منازل القرية فقد كانت بسيطة وكانت تصنع من الأغصان والأخشاب والألياف وخصف الأشجار والصبغ والجلود والفخار والمعادن، منها على سبيل المثال الفرائق (بسطة ملونة من الصوف)، والمساند، والملحف (غطاء من الجلود والفرو)، والممشوط (بساطة من الصوف)، والحنابل (سجاد قطني)، والمعطب (قمماش ملون للفرش)، والمزبا (مهد من الجلد للطفل الرضيع)، والسياع لتعليق الملابس، والنجر والمحماص والمنفاخ، والمبخرة والجونة لحفظ البخور، والأواني والقدور الفخارية، والفانوس والسراج والأتريك للإضاءة،

والجوحل لحفظ الماء، والرحى لطحن الحبوب، والشكوة والديبة لخض الحليب، والحرضة من الحجر لتقديم الطعام، والمجمر والصاج، والميفي من الفخار للطبخ والخبز، والمخراص والمهجان، والبرم قدور كبيرة للطهي، وغيرها من الأواني والأدوات الأخرى. (نورة عبدالرحمن وآخريات، 1989م). (Mauger T. 1996) نستخلص مما سبق في البندين 1 و 2 أن أنماط مباني المساكن في قرى منطقة عسير من حيث بناؤها ومواد بنائها وتقسيمها الداخلي تتأثر بالطبيعة المادية والاجتماعية المحيطة بها من حيث تأثر الطبيعة المادية لاحظنا أن:

1- المواد الداخلة في الأبنية القديمة مأخوذة كلياً من المحيط الجغرافي كلياً من المحيط الجغرافي فإن توافرت فيه الأحجار الصالحة للبناء قام السكان ببناء مساكنهم من الحجارة الخالصة أو بعض الطين، أما في المناطق التي تقل فيها الحجارة أو تكون غير صالحة فغالباً ما تدعم الحجارة بالطين في بناء الجدران، وفي المناطق التي تندر فيها الأحجار فتبنى البيوت من الطين الخالص. بشكل مائل من الخشب والطين كي لا تتراكم على السطوح مياه الأمطار حيث تكثر في المنطقة نسبة الهطول المطري والعواصف والرياح العاتية نظراً لارتفاع المنطقة عن سطح البحر إلى حد يصل إلى أكثر من ثلاثة آلاف متر على الأقل في معظمها.

2- تُبنى البيوت بشكل متلاصق مع بعضها في تجمعات مدمجة أو متباعدة بشكل تحيط حياة سكانها وتفكيرهم الدائم بالدفاع عنها إلى درجة أن بعضها بني على شكل حصون أو قلاع أو غيرها في كل قرية تقريباً بحيث يمكن حمايتها والدفاع عنها من الاعتداء.

3- اختلاف المواد التي تبنى منها البيوت باختلاف موقعها الجغرافي وارتفاعها. ففي الجزء الأوسط الشاهق الارتفاع تبنى معظم البيوت من الحجارة فقط أو من الطين والحجارة المتوافرة في المنطقة، أما في الجزء الغربي فتبنى البيوت من الأخشاب

- والأعشاب وجذوع الأشجار، وفي الجزء الشرقي تُبنى البيوت من مواد مختلفة مثل الحجر والطين والأخشاب والشعر.
- 4- إن غالبية بيوت عسير القديمة تتسم بالمشابهة إلى حد كبير في مرافقها وتنظيمها بحيث تحيط بها الأسوار وتلحق بها حظائر الماشية ومرابط الخيل والإبل والمخازن، وهي تتكون بشكل عام من طابق أو طابقين إلا إذا كان مالكوها من الأغنياء حيث ترتفع طوابقها عندئذٍ إلى سبعة طوابق.
- 5- وجود عدد كبير من القرى ذات البيوت البسيطة المؤلفة من غرفة أو غرفتين مبنية من مواد بسيطة أيضاً ولذلك تكون متدنية جداً.
- 6- اختلاف طرائق بناء البيوت باختلاف المادة الأساسية الداخلة في بنائها سواء أكانت من الصبول والقش أو من الحجر والطين.
- 7- تزين جميع البيوت داخلياً بزخارف وألوان مستمدة من البيئة وتزخرف السطوح أو تطلّى بالألوان الجذابة أما بالنسبة للتكنولوجيا والتنظيم الداخلي للمساكن فهي متشابهة إلى حد كبير.

ثانياً: الحصون والقصبات والقلاع والمنشآت العسكرية:

تشتهر منطقة عسير بكثرة حصونها وقلاعها وقصورها التي لا تكاد قرية تخلو منها، وخاصة في المنطقة الجبلية وما زال كثير منها موجوداً حتى الوقت الحاضر رغم ما لحق بها من خراب وتدمير بسبب العوامل الطبيعية أو من قبل الإنسان لدرجة أن بعضها لم يتبق منه سوى بعض الأطلال، وبعضها الآخر يوشك أن ينهار إذا لم تتم صيانتها والمحافظة عليه، ويعود تاريخ بناء كثير منها إلى مئات السنين. ونظراً لأهميتها التاريخية، وللحفاظ على المعالم الأثرية والتراثية فقد اختير بعضها ليكون رموزاً للتراث الشعبي في منطقة عسير مثل حصني تنومة ورجال ألمع، (القحطاني وآخرون، 1417هـ)، وتختلف الحصون عن القصور بأنها أبنية مستقلة بذاتها ويتألف كل منها من عدة طوابق، وكانت تستخدم للسكن والدفاع والمراقبة، وكان بعضها

يستخدم لتخزين الحبوب وأعلاف الحيوانات، أو لحراسة المزارع، ولذلك صممت مداخل الحصون بإحكام بحيث يصعب اقتحامها. وقد بنيت الحصون باستخدام الحجارة أو الطين أو كليهما معاً بقواعد مربعة أو مستديرة الشكل، الشكل رقم (1-14)، أما القصور فكانت تستخدم للسكن، ويمتلكها شيوخ القبائل والأمراء والأثرياء والتجار، وتختلف الحصون عن القصبات بأنها أكبر مساحةً وجمالاً ويقم أصحابها فيها، أما القصبات فقد بنيت على المرتفعات بقواعد دائرية الشكل ولا يتسع كل منها إلا لعدد محدود من الرجال يرابطون فيها فترات قصيرة للمراقبة والدفاع، وكان سكان منطقة عسير يستعملون النار والدخان للإعلان عن الخطر.



الشكل رقم (1-14) يوضح قصبه حربية في قرية الحاجب الواقعة شمال غرب مدينة أبها وتشرف

على ممر وادي حلي

وقد حرص أصحاب القصبات والحصون على العناية ببنائها وعلى قوتها ومنعتها إلى جانب جمال مناظرها، ولذلك زُينت أبوابها ونوافذها وواجهاتها بأحجار المرو، وما زالوا يقيمون فيها أو بالقرب منها حتى الوقت الحاضر وما زالوا يستعملونها لتخزين الأمتعة والمواد الغذائية وخاصة الحبوب التي تحفظ عدة سنوات بنشرها داخل الغرف أو بأكياس

من القش. وقد تعود ملكية القصبية أو الحصن لفرد واحد أو لأسرة أو لأهل القرية، وغالباً يشترك في بنائها أهل القرية أو العشيرة. وتختلف القصبيات والحصون في عدد طوابقها وفي اتساعها، وقد يصل ارتفاعها إلى سبعة طوابق، الشكل رقم (15-1).



الشكل رقم (15-1) يوضح مقطع لقصبية وطابقها الأرضي والعلوي

وللحصون والقصبيات نوافذ صغيرة للإضاءة والتهوية توضع فيها الأعشاب الشوكية الجافة لمنع الطيور والحيوانات من الدخول إليها، (الرفاعي، 1407هـ.). والشكل رقم (16-1) يوضح مشاهد خارجية وداخلية لإحدى القصبيات القديمة والتي كانت تستخدم لتخزين الحبوب والأعلاف.



الشكل رقم (16-1) يوضح صوراً لإحدى القصبيات القديمة في مدينة سراة عبيدة وكانت تستخدم لتخزين الحبوب والأعلاف

بالنسبة للحصون فقد كانت كثيرة، ومن الحصون المشهورة في المنطقة حصن رجال ألمع الذي حُول إلى متحف للتراث الشعبي في محافظة رجال ألمع منذ عام 1407هـ، ويتألف من أربعة طوابق، ويضم نحو 2700 قطعة من المقتنيات الأثرية والتراثية التي جمعها أبناء المحافظة، وحصن تنومة الذي بناه أحد أبناء مدينة تنومة ليكون مقراً لعرض المظاهر والتحف التراثية لمدينة تنومة، الشكل رقم (1-17) وهناك حصون عديدة منها حصن قرية آل دحمان بتنومة، وحصن قرية صبح شمال أبها، وحصن قرية آل الشاعر شمال أبها وحصن قرية الحرجي قرب مدينة أبها.



وتوضح الصور في الأشكال رقم (18-1)، (19-1)، (20-1)، (21-1) نماذج مختلفة من تلك الحصون المنتشرة في أنحاء منطقة عسير، والتي تختلف في أنماطها العمرانية وتواريخ بنائها.



الشكل رقم (18-1) يوضح حصن حربي يتجاوز عمره 150 سنة في قرية آل دحمان في بلدة نتومة في محافظة أبها في المنطقة الجبلية



الشكل رقم (19-1) يوضح حصناً سكنياً في قرية صبح شمال شرق مدينة أبها ويشرف على وادي عبا ويبنى من الحجر منذ أكثر من 170 عاماً



الشكل رقم (20-1) يوضح حصناً لآزن الحبوب مشيداً منذ أكثر من 150 عاماً في قرية آل الشاعر شمالي أبها



الشكل رقم (21-1) يوضح حصناً حربياً مشيداً من الطين منذ نحو 160 عاماً في قرية الحرجة قرب مدينة العداوية ويتكون من أربعة طوابق

ثالثاً: القصور والقلاع والمنشآت العسكرية:

توجد القصور التي تنتشر في أنحاء منطقة عسير في معظم الأحيان في المدن الكبيرة مثل أبها وخميس مشيط وبيشة والنماص وتنومة، وفي بعض المراكز الريفية المجاورة لها، وبنيت بالحجارة أو الطين أو كليهما معاً، وتطلى بالجص، وتختلف أحجام القصور واتساعها وجودة بنائها بين مكان وآخر، كما يختلف أيضاً مستوى تزيينها وزخرفتها بالنقوش والرسوم والأثاث المستخدم في فرشها على الحالة المادية لأصحابها.

ومن أشهر هذه القصور قصر شدا الأثري الذي بناه عائض بن مرعي عام 1250هـ عندما تولى حكم منطقة عسير، وأدخل عليه ابنه محمد، الذي خلفه عام 1274هـ، بعض التحسينات، ثم أصبح مقراً للإمارة في العهد السعودي الشكل رقم (1-22) ويستخدم في الوقت الحاضر كمتحف للمقتنيات التراثية والمخطوطات والمأثورات الشعبية والتقليدية التي تشتهر بها منطقة عسير. (جريس، 2002)، والشكل رقم (1-23) يوضح صورة لأطلال حصن سكني بناه الأمير عائض بن مرعي على سفوح جبال السروات بقرية ريدة غربي مدينة أبها عام 1251هـ (1835م) واستعملت الحجارة في تشييده.



الشكل رقم (1-22) يوضح قصر شدا الأثري



الشكل رقم (1-23) يوضح حصناً سكنياً على سفوح جبال السروات بناه الأمير عائض بن مرعي ويتجاوز عمره 170 عاماً

ويوضح الشكلان رقم (1-24)، (1-25) نمط العمران التقليدي المستخدم في بناء القصور في منطقة عسير، وهما قصر أبي ملح و قصر وادي بن هشبل. فقصر أبي ملح تبلغ مساحته نحو 23200م². ويقع هذا القصر في مدينة أبها، وقد بُني طابقه الأرضي من الحجر، أما طوابقه العليا فقد بنيت من مداميك الطين، واستخدمت أخشاب شجر العرعر في تسقيفه وصناعة بواباته، وقد بُني كسكن عام 1929م، ولا يزال قائماً حتى الوقت الحاضر، ويختلف هذا القصر عن القصور الأخرى في المنطقة بأنه لا يضم متاريس وتحصينات دفاعية لأنه بُني خلال العهد السعودي الذي يسوده الأمن والاستقرار. والشكل رقم (1-26) يوضح أحد القصور في مركز وادي بن هشبل بمحافظة خميس مشيط والذي يقدر عمره بأكثر من مئتي عام. (الرفاعي، 1407هـ.).



الشكل رقم (1-24)، (1-25) يوضحان إحدى واجهات قصر أبي ملحمة وتوضح بعض جوانب الانماط العمرانية التقليدية في منطقة عسير

■ **قصر شدا القديم**، وبني خلال الفترة 1249-1273هـ في عهد الأمير عائض بن مرعي، وكان من أشد وأشهر معاقل وقلاع منطقة عسير متانة، وكان يضم أربعة طوابق واستمر استخدامه خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين، ثم أصابه الخراب والدمار مع مرور الزمن، وتم هدمه وبناء مبنى لمصلحة الهاتف مكانه، وبذلك فقدت المنطقة أحد المعالم التاريخية والأثرية المهمة. التكنة العسكرية العثمانية التي عُرفت باسم طاش قشلة، وبُنيت من الحجارة في القسم الجنوبي من رأس أملح بمدينة أبها إبان عهد الوالي العثماني فيضي باشا خلال الفترة 1294-1297هـ (1877-1879م)، وقد بني على أطلالها قصر شدا الجديد الذي ذُكر سابقاً.

بالنسبة إلى القلاع و المنشآت العسكرية هناك بعض القلاع والمباني العسكرية التي بناها العثمانيون الأتراك وتنتشر أطلالها وأنقاضها في كثير من الوهاد والجبال في أرجاء المنطقة، وخاصة في الأماكن التي تحيط بمدينة أبها، وقد اهتم العثمانيون ببناء المنشآت العسكرية لإحكام سيطرتهم على المنطقة والتصدي للحروب القبلية التي كانت تشن عليهم بين حين وآخر إبان فترة حكمهم. ويعدُّ الوالي العثماني محي الدين باشا من أكثر الولاة العثمانيين، الذين تعاقبوا على المنطقة، اهتماماً بالمنشآت العسكرية، فقد

مُدَّت في عهده الطرق الرئيسية بين أبعها وتوابعها، وأنشئت المعامل والتحصينات العسكرية في الأماكن المهمة وعلى قمم الجبال وفي الأودية، وكذلك بُني العديد من القلاع في أماكن متفرقة من أهمها قلعة شمسان وقلعة الدقل وقلعة ذرة وقلعة شعار وقلعة القشلة والتي لا تزال مبانيها وأطلالها ماثلة للعيان حتى الوقت الحاضر.

1- قلعة الدقل: وتقع في موقع مهم من الناحية العسكرية في شمال غرب أبعها فوق جبل ارتفاعه نحو 2343 م فوق سطح البحر، وقد مكنها هذا الموقع من السيطرة على المنافذ والطرق في الشعاب والأودية التي تخترق السلسلة الجبلية في شمال القلعة وغربها، وكانت تُعد مصدر خطر لمدينة أبعها عند نشوب الثورات ضد القوات العثمانية. وقد أسس هذه القلعة الوالي العثماني محي الدين باشا خلال الفترة 1332-1334هـ (1914-1916م) ووفر فيها وسائل الدفاع من أسلحة ومعدات وذخائر ومؤن تكفي فترة طويلة في حالة محاصرتها. وظلت هذه القلعة كحصن عسكري طوال فترة حكم العثمانيين للمنطقة، واستعملتها القوات السعودية بعد جلائهم ثم هُجرت وتعرضت للخراب والدمار ولم يتبق منها سوى بعض الأطلال.

2- قلعة شمسان: كما نشاهد في الشكل رقم (1-27) بناها أيضا الوالي العثماني المذكور سابقاً نفسه على قمة جبل يحمل الاسم نفسه، ويتجاوز ارتفاعه 2300م فوق سطح البحر، وكانت تتحكم بالطريق القادم من عقبة شعار واستمر استعمالها حتى مغادرة العثمانيين منطقة عسير عام 1337هـ / 1918م، وتعرضت للخراب والتهدم، وقامت القوات السعودية بترميمها وإضافة بعض المباني إليها عام 1352هـ / 1933م، واستعملتها فترة قصيرة عند نشوب القلاقل مع اليمن بسبب النزاع على منطقة نجران، ثم هجرتها فتعرضت للخراب والدمار مع مرور الزمن ولم يبق منها سوى بعض الأطلال.



الشكل رقم (1-27) يوضح أطلال قلعة شمسان على قمة جبل يطل على أبعها يتجاوز ارتفاعه 2300م فوق سطح البحر وتمثل أحد المعالم التاريخية التراثية في منطقة عسير

- 3- قلعة ذرة : شيدها أيضاً الوالي العثماني محي الدين في موقع حصين يصعب الوصول إليه على قمة جبل ذرة التي يتجاوز ارتفاعها 2400 م فوق سطح البحر، وكانت تسيطر على الطرق القادمة إلى مدينة أبعها من الجنوب الغربي والجنوب الشرقي، وقد أصابها الخراب منذ بداية العهد السعودي بسبب هجرها وعدم ترميمها إلا في فترة متأخرة عام 1404هـ/1984م.
- 4- قلعة شعار: بُنيت على عدة مراحل بدأت عام 1289هـ/1872م وتعرضت للتخريب من قبل أهالي المنطقة خلال ثورتهم على العثمانيين عام 1321هـ/1903م، ثم قام بترميمها واستعمالها القائد العثماني سليمان باشا عام 1326هـ/1908م، وأضاف إليها الوالي العثماني بعض التحصينات وساحة للتدريب عام 1328هـ/1910م، وبعد جلاء العثمانيين استعملتها القوات السعودية لفترة قصيرة، ثم هجرتها فتعرضت للخراب والدمار ولم يبق منها سوى أطلال دارسة.

5- قلاع أخرى: ومن القلاع العثمانية الأخرى في المنطقة، قلعة القشلة الشكل رقم (28-1)، وقلعة رجم التي تتألف من ثلاثة مبانٍ دائرية بمحاذاة محابيل، و الشكلاّن رقم (29-1)، (30-1) يوضحان أطلال بعض هذه القلاع. (جريس، غيثان بن علي، 2002م).



الشكل رقم (28-1) يوضح قلعة القشلة ورممتها وكالة الآثار والمتاحف واستخدمت كسجن حتى عام 1413هـ، ومساحتها نحو 1500 م²



الشكل رقم (1-29) يوضح قلعة آل عاصم بعسير



الشكل رقم (1-30) يوضح قلعة جبل نصاب في مركز خلال

رابعاً: مبانٍ ومنشآت أخرى:

تنتشر في منطقة عسير كثير من المباني والمنشآت الزراعية القديمة التي تشتهر بها المنطقة، والتي استخدمت ومازالت تستخدم في الوقت الحاضر في عدة نواح، وتشمل:

1- المدرجات أو المصاطب الزراعية: وتنتشر في أنحاء المنطقة جميعاً، وخاصة في المنطقة الجبلية، وقد أنشئ كثير منها منذ مئات السنين، ويتم إنشاء هذه المصاطب ببناء أسوار من الحجارة بطريقة متقنة بارتفاع 0.5_2م، وبعضها يتجاوز 8-10م، تتجمع خلفها مع مرور الزمن التربة الصالحة للزراعة التي تجرفها مياه الأمطار والسيول الزراعية. ويستدل من نمط عمارة هذه المصاطب وطريقة بنائها على وجود حضارة قديمة في منطقة عسير، ووجود أقوام أقوياء تمكنوا بمهاراتهم وخبراتهم من التغلب على التحديات الطبيعية والبشرية التي واجهتهم.

2- الأسوار الحجرية: وتوجد في منطقة عسير أسوار حجرية بارتفاع 1-2م تحيط بمناطق الحمى المنتشرة في الجبال والأودية، والتابعة لبعض الأفراد أو القبائل والعشائر في المنطقة، كما توجد بعض الأسوار التي بنيت لبعض الأسر، أو القرى، أو العشائر كحدود بين المناطق التابعة لها، وتتميز هذه الأسوار ببساطتها في طريقة بنائها وتشكيلها، فكانت غالباً تبنى بالحجارة فقط دون استخدام الطين أو التراب معها، على عكس المتبع في بناء المنازل والحصون والمصاطب الزراعية. (جريس، 2002م)

خامساً: بعض التغيرات الحديثة في نمط البناء والعوامل المؤثرة فيها.

طرأت تغيرات عديدة على النمط التقليدي للبناء في منطقة عسير ككل وقد ارتبطت هذه التغيرات ببدء الانفتاح على المناطق الأخرى في المملكة العربية السعودية، ويتطور الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية وشق الطرقات الحديثة وتوافر الأدوات والأجهزة المختلفة نتيجة لتزايد دخل الدولة بشكل ملحوظ الذي نجم عن اكتشاف البترول وارتفاع إنتاجه ودخله بشكل مطرد، فضلاً عن التسهيلات التي أُتيحت

للمواطنين في المملكة بشكل عام لبناء مساكن جديدة بأنماط عمرانية حديثة تحاكي الأنماط العمرانية الأوربية بدلاً من المساكن والمباني القديمة، وقد أُتيحت هذه التسهيلات للمواطنين عن طريق صندوق التنمية العقارية الذي تموله الدولة لتقديم قروض للمواطنين طويلة الأجل قد تصل إلى 25 عاماً، إلى جانب توافر الخبرات والمهارات اللازمة لبناء المساكن والمباني الحديثة.

نتيجة لذلك حلت المباني الخرسانية من الإسمنت المسلح محل الحجر والطين، وأصبحت معظم مباني المنطقة بأنماطها العمرانية الحديثة مشابهة للمباني في مناطق المملكة الأخرى وصورة مكررة عنها، وهذا ما أوجد صورة سلبية لهذا التكرار في عمارة المنطقة مقارنة بمبانيها القديمة بأنماطها المتميزة والمتناسقة مع بيئتها الجذابة. (نورة عبد الرحمن وأخريات، 1989م). فضلاً عن ذلك تغلغت المباني الإسمنتية الحديثة بين المباني القديمة التراثية العريقة والجميلة مما أدى إلى تشوش واضطراب تناسقها فيما بينها من ناحية، ومع بيئتها الطبيعية المحيطة بها من ناحية ثانية. وتختلف درجة تغلغل المباني الإسمنتية وتوسعها في المراكز العمرانية بين مكان وآخر في أنحاء منطقة عسير حيث وصل في بعض الأماكن إلى درجة خطيرة أصبح معها يهدد بزوال المباني التراثية العريقة واختفائها، بدلاً من وخارجها تأهيل هذه الأماكن وعناصر جاذبة للسياح والزوار من داخل المملكة وخارجها. فعلى سبيل المثال اندثرت تقريباً جميع المباني التراثية والتاريخية من قلب مدينة أبها القديمة أمام التوسع العمراني بالخرسانة المسلحة التي حلت محلها لدرجة أن قصر شدا الأثري، والذي كان مقر أمير المنطقة أكثر من 150 عاماً تقريباً أصبحت صورته ونمطه العمراني لا ينسجمان مع المباني الحديثة المحيطة به، فقد تم تدمير التراث ومسح المعالم التاريخية والأثرية دون وعي في سبيل التوسع العمراني بالمباني الحديثة، وتراجعت الصورة التراثية الجذابة لتتحصر في المواقع التي كانت تعقد فيها الأسواق القديمة في أحد أيام الأسبوع مثل سوق الثلاثاء في غربي مدينة أبها، (Mauger, T. 1993)..

أما التغيير الذي طرأ على توزيع استخدامات فراغات المسكن ومرافقه فقد اقتصر على إضافة الحمامات إلى السكن وزيادة غرف النوم واستعمال وسائل التدفئة الكهربائية، كما استبدلت مواد التلوين والزخرفة والقديمة داخل المسكن بمواد التلوين الحديثة والألوان التي تجلب من الخارج. وتلاحظ ملامح التغيير هذه بشكل خاص في المراكز الحضرية، أكثر من القرى والمناطق الريفية حيث بقي السكان يتمسكون بأنماط العمران التقليدية القديمة رغم زحف أنماط العمران الحديث. كما امتد التغيير والتطور ليشمل الأثاث المنزلي والأدوات المنزلية، فاستبدل الأثاث القديم الذي يتصف بجماله وبساطته بالأثاث الحديث فأخذت الكراسي والأرائك والمفروشات الحديثة مكان الملاحف، وحل السجاد المستورد من إيران وألمانيا والصين وغيرها محل الفرائق أو الحنايل المحلية الصنع، واستعملت الستائر بدلاً من الزخارف والنقوش التي كانت تزين الجدران، وبمظاهر التغيير هذه تغيرت ملامح البيت العسيري في معظم المناطق.

وهكذا نجد أن التغييرات التي طرأت على نمط البناء التقليدي في منطقة عسیر وعلى مواد البناء والأدوات المستخدمة وكذلك الأثاث والتقسيم الداخلي كانت كبيرة بكل المقاييس نتيجة للتحويلات في البنية التحتية الاقتصادية والاجتماعية والتكنولوجية. وفي حالات كثيرة قادت هذه التغييرات إلى تهديد كثير من المباني العريقة واندثارها وخاصة عندما تحولت بعض القرى إلى مدن أو مراكز حضرية كبيرة للسكان ذات كتل عمرانية كبيرة. كما قادت إلى تغييرات عديدة في النسيج العمراني للقرى القديمة وفي المحيط الجغرافي لها فتقلصت الغابات وتقطعت الطرق القديمة كطريق الفيل وغيرها. وقد تم كل ذلك دون مخططات عمرانية أو ضوابط إرشادية مما أثر سلباً في المخزون السياحي في المنطقة والاختفاء التدريجي لبعض معالمها الأثرية والتراثية وفوق ذلك كله ولد الوضع الجديد مشكلات عديدة تعوق التنمية السياحية من أبرزها التناقض بين خصائص العمران القديم والجديد والتوسع العشوائي على حساب المناطق

الأثرية والمواقع الطبيعية وعدم وجود حدود للنطاقات العمرانية للمراكز الريفية وضعف الرقابة والتنسيق.

ومع أنه حتى فترة قريبة لم تكن المعالم التراثية موضع اهتمام يتناسب مع أهميتها، إلا أن البلاد في الوقت الحاضر قد بدأت الاهتمام بها والإحساس بما فقدته وخسرته المنطقة من معالمها التراثية، وجرت وما تزال تجري محاولات من قبل المسؤولين والجهات الحكومية أو بتشجيع منها لتعويض هذه الخسارة بتشبيد بعض المنجزات الحديثة التي تحاكي المعالم التراثية وتنسجم مع البيئة المحيطة بها، مثل قرية المفتاحة التراثية في مدينة أبها، والتي تعرف بمركز الملك فهد الثقافي، التي أنشئت عام 1990 م بهدف الحفاظ على المعالم والمظاهر التراثية في منطقة عسير. وأصبحت مع المنازل القديمة والمزارع القريبة منها مركزاً للفنون التشكيلية المحلية ومنتزهاً عاماً يشكل أحد عناصر الجذب السياحي في المنطقة بسبب تميزها بأنماط عمارتها، ومساهمتها في تشجيع حركة الإبداع الفني وإحياء الصناعات الحرفية واليدوية.

وفي هذا الصدد تم إدخال تحسينات على سبل تطوير أساليب العمران ووسائل الحفاظ على التراث العمراني منها:

- تقديم نماذج معمارية للمناطق الجديدة تمت فيها المحافظة على المباني القديمة أو تطويرها من خلال الترميم المناسب أو تزويدها بالتقنية الملائمة.

- الاستفادة من القرى التراثية القديمة في تحديد تراث الماضي للحفاظ على الرصيد العمراني المتبقي من مبانيها وتحسين بيئتها العامة بما يتناسب مع أهميتها التاريخية والعمرانية والسياحية.

- بدء الخطة بالقرى ذات الأولوية التي تتوفر فيها المعايير المعمارية ذات القيمة لما تشكله من عناصر جذب سياحي واستمرار عمراني والحفاظ على بيئتها بشكل متوازن يعبر عن الواقع الحقيقي لمنطقة عسير بتجانسها مع المظاهر الطبيعية المحيطة بها.

- دراسة الوضع الراهن للقرى وإعداد مخططات تفصيلية بمقاييس كبيرة وتحديد حالة المباني والعناصر العمرانية التقليدية الموجودة.
- تطبيق القوانين من خلال المراقبة المشددة على المباني القديمة وجعلها أكثر جاذبية والحد من أي تعدّد ناجم عن تخطيط شبكة بالشوارع والفلل المنفصلة.
- استخدام أساليب حديثة لتطوير القرى بهدف الحفاظ عليها وصيانتها وترميم النسيج العمراني المحيط بها كي تصبح ملائمة للأنشطة الترفيهية والثقافية والاستثمارية والسياحية واستخدامها لممارسة النشاطات المتنوعة من استقبال وحفلات وإرشاد ومطالعة ومسارح شعبية ومراكز الفنون وغيرها.
- توظيف الساحات المحيطة بالمباني التراثية العمرانية كمواقع لمزاولة الفنون الشعبية والأنشطة الرياضية والمعارض الحديثة والتقليدية.
- منع إزالة أو تشويه الأبنية التراثية بقوة واعتبارها ملكية عامة ومعالجة ملكية بعضها ولاسيما تلك التي تعود لمواطنين ووضع شروط ومواصفات للترميم، بما في ذلك وضع خطة لامتلاك الدولة للمواقع السياحية الأثرية ذات الفائدة السياحية.
- وضع استراتيجية وطنية ومحلية لضبط التوسع العمراني وأي التغيرات المستقبلية في قرى المنطقة، مع اشتراط شروط جديدة للمباني كالشكل ومواد البناء والحجم واللون والإنارة والأرضيات والتشجير المحيط بالمبنى والمساحات الخضراء المحيطة به.
- تحديد نطاق المناطق المطلوب حفظها بما في ذلك المنتزهات والمحميات الطبيعية ونزع الملكيات الخاصة منها وتعويض أصحابها ومنع البناء عليها بشكل صارم.
- إقامة المشاريع السياحية في المناطق التي يمكن إقامة هذه المشاريع فيها من قبل القطاعين العام والخاص.

المراجع

- 1 - أحمد، كامل عبد الناصر، ومحمود عبد الهادي خليل، (1986 م)، دراسات معمارية وتخطيطية لتحسين البيعة السكنية القديمة في المدينة العربية، في بحوث النمو العمراني الحضري في المدينة العربية، المشاكل والحلول، ج 1، الصفحات 113 – 130، المعهد العربي لإنماء المدن، الرياض.
 - 2 - الرفاعي، وهبي الحريري، (1987 م)، عسير تراث وحضارة، الرياض.
 - 3 - القحطاني، محمد بن مفرح شبلي، ومرعي القحطاني (2000 م) : الوضع البيئي في منطقة عسير، دراسة استطلاعية للأوضاع الراهنة، أ بها.
 - 4 - جريس، غثيان بن علي،(2002م)، بحوث في تاريخ عسير الحديث والمعاصر، جدة.
 - 5 - سعود، نورة بنت محمد وأخريات، (1989 م) : أ بها بلاد عسير، بريطانيا.
 - 6 - شاكر، محمود، (1981م)، شبه جزيرة العرب، 1 عسير، ط 3، الرياض.
 - 7 - وهبية، عبد الفتاح، (1975 م)، جغرافية العمران، الإسكندرية.
 - 8 - وزارة الشؤون البلدية والقروية، (1404هـ) : المسح الاقتصادي والاجتماعي الشامل لقرى وهجر المملكة، التقرير الثاني، منطقة عسير.
- 9-Mauger T. 1996, Impressions Of Arabia, Paris
10- Mauger T. 1993, Undiscovered Asir,London.

تاريخ ورود البحث إلى مجلة جامعة دمشق 2005/6/26.